بين الينبوع الأحمر والظلال المطيفة به إن آثرت الهدوء، وبين أهل الدار وهذه المرأة البغيضة إن آثرت الصياح، أليس لي سبيل إلى الراحة من هذا العناء؟ ما أكثر ما طلبت وألححت في طلبها، وما أكثر ما فرت مني وامتنعت علي، وما أكثر ما خيل إلي أني أجري في إثر شيء أتمناه أشد التمني وأحرص عليه أعظم الحرص وأجدُّ في طلبه كل الجد، حتى إذا بلغته أو كدت أبلغه كانت منه وثبة فإذا المسافة بيني وبينه واسعة وإذا الأمد بينه وبيني بعيد، وإذا أنا معذبة أشد العذاب بالاضطراب الملحِّ المضني بين وجوه أهل الدار التي أكرهها، وهذه الظلال التي يؤذيني منظرها ويثير في نفسي ألمًا لا آخر له …

ولكنني أستقبل النهار ذات يوم هادئة النفس مستريحة الجسم، قد ألح الضعف عليَّ فما أكاد أتحرك، على أني أجد في هذا الضعف نفسه دعة وأمنًا فأستعذبه وأستلذه وأستسلم له استسلامًا، وأجد في نفسي دهشًا لذيذًا حلوًا لأني أفتقد شيئًا كنت أخاف أن أجده، أفتقده افتقاد السعيد بالنجاة من شر يخشاه، فقد يخيل إلي أن قد بَعُد العهد بيني وبين الظلال والينبوع ووجوه أهل الدار، وأني قد قضيت وقتًا غير قصير لم أرَ حمرة الينبوع، ولم أشهد اضطراب الظلال، ولم يرتفع صوتي بالصياح ولم يسرع إليَّ أهل الدار، ثم لا أكاد أتمثل هذا كله حتى أجتهد ما استطعت في أن أذود هذه الخواطر عن نفسي مخافة أن يطول تفكيري فيها فيكون ذلك استحضارًا لما أتمثله من الهول، ودعاءً لما أجد من السعادة في الإفلات منه، ورفعًا للستار عن الينبوع الذي منه يتفجر الدم والذي تطيف به الظلال. فأنا أذود هذه الخواطر عن نفسي، وأستسلم لهذا الضعف الذي أجده، وأود لو بقيت كما أنا هامدةً خامدة لا أقدر على شيء حتى على التفكير، ولكن هذه هي أمي تدنو مني وعلى وجهها الكئيب شيءٌ من آيات الرضا، وهي تقول لي في هذا الصوت الذي يخيل إلي أني لم أسمعه منذ زمن بعيد: لقد نمت الليلة كلها يا آمنة، فأنت بارئة، وما أرى إلا أنك ستسرعين نحو الشفاء. ليتها لم تقبل عليَّ، وليتها لم تدنُ مني، وليتها لم تتحدث إليَّ! فقد اقشعر لقربها بدني كله، واضطربت نفسي كلها، وأخذت غشاوة غريبة تُلقى على عيني، وأخذت الأشياء تضطرب من حولي اضطرابًا، وآذاني هذا كله أشد الإيذاء حتى كدت أصيح لولا أني حبست صيحتي في حلقي ولكن لم أستطع أن أمسك يديَّ وأن أمنعهما عن أن ترتفعا إلى عيني لتردا عنهما منظر هذه الأشياء الراقصة، وظنت الأم البائسة أني أتقيها فولَّت باكية، ووجدت في انصرافها عني سرورًا وراحة ورضًا.

ولا بد مما ليس منه بد، فلم يكن سبيل إلى أن تمتنع أمي عن عيادتي والعناية بي، ولم يكن سبيل إلى أن أرفض لقاءها وأخلص من محضرها، ولم يكن بد من أن